علي الجانب الآخر من الشاطئ

تقي عبد المقصود

لا أعرف ما الذى أتى بي إلى هذا المكان ولا كيف ولكنى وجدت نفسي هنا على شاطئ بحيرة صغيرة ؛

نعم شعرت بالخوف حين وجدت شخصا غريبا فجأة.. يرتدى عباءة بيضاء ناصعة البياض .. كان جالسا ..

لم أعرف الوقت حينها كان ليلا أم نهارا.. فقد كان هناك نورا غريبا يغمر المكان بإضاءة غريبة ..إضاءة من نوع خاص ..وفجاة وجدته أمامى يحدثنى فشعرت بشىء غريب انتفض له قلبي من بين ضلوعى ؟

أفكارى كلها مشوشة ..لكن هناك شىء واحد فقط استقر في عقلي..

ذلك الرجل ليس من البشر ..نعم ليس من البشر..

فذلك النور الغريب الذى يغمره .. وتلك الهالة حوله من

النور الرائع الجميل الذى يخفف من اضطراب النفس وهذيان العقل.. كل شىء حولى يدل على أنه ليس بشري انتظرت حديثه ..

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يابنيتى.. من انتى؟

- أنا ..أنا ....

قاطعنى قبل أن أكمل قائلا :

- يابنيتى قد بدأت كلامى بتحية الإسلام.. وهذا درسك الأول اليوم (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) .

obeikan.com

أعتذر يا سيدى ..أنا ..أنا...
قاطعنى مرة أخرى قائلا :
- درسك الثانى.. يا بنيتى قد إعتذرتى ..ولكن لم تصلحى خطأك ..الإعتذار يابنيتى قد يمهد طرقا ولكن لا يبنى مدنا (هكذا انتم يابنى البشر) .
نعم ماسمعته سليما ..الجملة الأخيرة قالها بخفوت ..نعم هو ليس من البشر (رأسى تكاد تنفجر ماذا يحدث)
فرددت عليه متلعثمة :
أعتذر حقا.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..أنا ..أنا وبداخل نفسي .. وجدت أنني لا أعرف حتى من أنا.
- وليكن يابنيتى ..أنتى أمة من إماء الله.. واتمنى أن تكونى من إمائه الصالحات
ماذا يحدث ..أطبق الصمت على المكان .. سكت هو وسكت أنا أيضا ..
ثم سألته أنا تلك المرة قائلة :
من أنت؟
لا اعرف أتجاهل سؤالى أم لم يسمعه ..كدت أكرره عليه ولكنى رأيت شخصا آخرا أنيقا مهندما.. ملابسه نظيفة.. منظمة يبدو من مظهره كما لو كان أحد أبناء القصور الملكية ولكن الغريب في الأمر ..
أن ذلك الرجل كان يقطع أخشاب الأشجار وكأنه حطاب
-قال الرجل ناصع البياض والهالة النورانية :
نعم إنه حطاب
تلعثمت ونظرت إليه في دهشة.. كيف يفعل ذلك إنه يقرأ أفكارى..
لم يعبأ بنظرة الدهشة التى في عينى .. وأكاد أجزم أنه يعرف سببها
ثم استطرد قائلا :

نعم يابنيتى إنه حطاب .. وليكن درسك الثالث اليوم

(وتحسبهم أغنياء من التعفف) ..نعم هو حطاب فقير يعمل ليل نهار .. كى يوفر حياة توصف بالمستورة له ولأسرته وما يرتديه هو رداء من أحد ردائين لايملك سواهم ولكنه دائما هكذا مهندما نظيفا بشوشا.. يملك من العزة والكرامة مايجعله دائما يعيش مرفوع الرأس ..

فعلى الرغم من ضيق ذات يده ولكنه لم يطلب يوما مساعدة من أى أحد..

تكرر الصمت مرة أخري ولكنى قطعته هذه المرة وكررت سؤالى بصوت واضح قائلة : من أنت ؟

نعم سمعه تلك المرة وتجاهل السوال كالسابقة فقلت له أعلمك أنا تلك المرة درسا أيها الشيخ..

أومأ رأسه بالإيجاب والإبتسام مع مسحة من الحزن تبدو وكأنها دائمة على وجهه الحزين.

فاستطردت قائلة :

- من آداب الحديث والإستماع ياسيدى ألا تستهين بأى شخص مهما كان عمره أوعمله..وألا تتجاهل أحدا يحدثك حتى ولو لم ترغب بالإجابة عليه .. تستطيع أن ترفض بلباقة وذوق عن الرد .

وهنا قام الرجل ووقف نعم ..

كان ما رأيته غريبا أدهشنى وأفقدنى نطقى حقا وبحركة لا إرادية أدرت وجهى ..

كان ما رأيته غريبا بكل تفاصيله .. هناك على الجانب الاخر من الشاطىء كانت هناك جنازة كبيرة ..أعداد هائلة من البشر لايستطيع بصرك أن يدرك أين البداية وأين النهاية فالناس في إمتداد غريب لا تعرف من أين يأتون ولا إلى أين يذهبون..

أزعجنى منظر الجنازة في البداية فطالما يثير ذلك المنظر في نفسي الرهبة ليس خوفا من الموت ولكن خوفا من مقابلة من له الملكوت..

ولكن هذه المرة لم تكن الجنازة هى ما أثار دهشتى بل الغريب أن كل من يمشى بالجنازة يحمل نعشا خشبيا فكيف ذلك ؟ هل يعقل أن تكون جنازة جماعية لهذا العدد المهول من البشر ؟

لم يستطع عقلى الإستيعاب ..فتلك النعوش أو التوابيت التي يحملونها كانت صغيرة أيضا للغاية .. صناديق لا تكفي حتى لمولود صغير...

كان منهم من يضحك ومنهم من يبكى ولكن العامل المشترك فيهم جميعا هو الهيستريا ..

كان كل مايحدث غريبا ولكن الشئ الذى استوقف عقلى بشدة هو تلك التوابيت الصغيرة ؟

هنا تذكرت الوحيد الذى يستطيع تفسير الموقف إنه...

واستدرت إليه ويا ليتنى مافعلت ؟

كان بلا أطراف.. بلا يدين ..بلا قدمين ..تراجعت الى الوراء وهو ينادى علي ويتقدم نحوى وأنا أبكى حتى وقفت وبدأ الحوار من جديد

- الآن يابنيتى قد أدركتى اننى لم أتجاهلك عمدا ..

فقط الصبر.. أوصيكى بالصبر والتماس الأعذار للآخرين..

في نفسي كنت أقول (ماذا يفعل ذلك الرجل لاريد دروسا ومواعظ اريد تفسيرا لما حولى)

وابتسم الرجل وكأنه سمعنى رغم أننى لم أتفوه بحرف واحد مما جال بخاطرى واكمل حديثه قائلا :

يموت الإنسان وهو لازال يتعلم وأحسن العلم يابنيتى هو علم المواقف والحياة علم الأخلاق تتعلمينه في الشدائد فتعرفي من أنتى على حقيقتك بدون نفاق أو رياء

أعلم أن عقلك الآن قد أرهقه الأمر وأنكِ ترغبين في المعرفة وأنا سأحكى لكِ كل ماتريدين ولكن هناك

(على الجانب الآخر من الشاطئ)..

هيا بنا يابنيتى نذهب الى هناك ..

لا أعلم لماذا ذهبت معه ولا من أين جاء هذا القارب الذى ذهبنا به الى هناك فقد كانت البحيرة خالية ولم أسال على شئ فيكفى ما أريد معرفته فعقلى لن يحتمل ذلك .

وصلنا الى هناك وبادرته انا بالحديث قائلة :

من أنت ؟ ولماذا أنت علي هذه الهيئة ؟ أنت لست من البشر ؟ أليس كذلك ؟ أنت.....

قاطعني قائلا :

الصبر يابنيتى

(ووجدت وجهه الابيض يكتسى بالحزن) وأخذ يحكى لي ويقص عليا القصص ..وفي كل كلمة من كلامه أشعر وكأن قلبى يحتضر والدموع تنهمر دون تحكم منى فقال لى :

أنا يابنيتى أقوى من على الأرض ..

فنظرت إليه باستغراب ولسان حالى يقول له أنت بلا أطراف ..فكيف ذلك ..ويبدو أنه شعر بدهشتى فأكمل حديثه قائلا :

اقصد كنت.. أنا كيان الخير ..

وسكت قليلا ثم أكمل قائلا :

والأن أنا هكذا أمامك في ذلك الزمن بلا أطراف بلا حراك أشاهد مايحدث وليس لدى سوى الصمت

وهنا سالته:

مالذى فعل بك ذلك؟

قال :

أنتم.. نعم أنتم بنى البشر فقد كنتم خير أمة أخرجت الى الناس تأمرون

obeikan.com

بالمعروف وتنهون عن المنكر لكن الآن أين أنتم ؟ في كل لحظة تخطئون كان ينقص منى شيئا حتى صرت كذلك لا أستطيع الحراك
ولكنك الخير.. لابد أن تنتصر في النهاية
يابنيتى لا خير في حق لا تدعمه قوة ..انتم هكذا حتى الطيبون منكم يكتفون بأنهم على حق وتتواكلون على الله .. هناك فرق رهيب بين التوكل والتواكل
وابتسم ابتسامة حسرة وقال لى :
ألا تريدين ان تعرفي سر هؤلاء الناس ؟
وأشار على الجنازة ..وبالطبع أومأت برأسى بالإيجاب
فقال :
هؤلاء الناس هم أقوام الزمن القادم وأدعو ربى أن أكون مخطئا) اذا أردتم أن تعلموا الناس فلتحيوا بداخلهم حب الفضيلة والنفور من الرذيلة ؛ فلتحيوا الضمائر(
لمن تلك الجنازة أيها الشيخ ؟ ولماذا تلك التوابيت صغيرة هكذا ؟ اليست جنازة أم أنا مخطئة ؟
إنها جنازة الضمائر يابنيتى هؤلاء ماتت ضمائرهم وقتل الخير بداخلهم .
لم استوعب الموقف ؛ كلٌ يحمل ضميره في تابوت ؟ وماذا يتبقى منهم اذا ماتت ضمائرهم ؟
وهنا سألته :

فلماذا إذن يضحكون ويبكون ؟
منهم الطيب يابنيتى الذى لم يتحمل صعوبات الحياة فباع ضميره عند أول مشترى ومنهم الشرير من باعه بلا ثمن ولاندم
وهنا ساد الصمت ..
وظللت أتابع الجنازة بنظرى وأنا أحترق ألما وخوفا من زمن بداياته تلوح

فقطع صمتي قائلا :
سوف يأتى عليكم زمان يكون فيه الممسك على دينه كالممسك على جمر من النار..
الى هنا سأتركك في رعاية الله وحفظه
ألن أراك ثانية أيها الشيخ؟
إذا عاد الخير للوجود ونصرتم الحق بالقوة لا بالكلام وأحببتم الخير بالعمل لا باللسان سنلتقى ..
سنلتقى عند كل يتيم تكفلوه وعند كل زرع تروه وعند كل طفل منذ صغره على الدين والخير والحب تربوه ..

سنلتقى عندما تعود ضمائركم ويموت الحسد والحقد بنفوسكم .. سنلتقى عند كل آية في كتاب الله تقرؤها وعند كل صلاة تصلوها وعند كل زكاة تؤدوها .. سنلتقى إذا كان مقدرا لنا اللقاء يابنيتى

واختفي فجأة كما ظهر فجأة وتركنى أفكر إلى أين نحن ذاهبون ؟
تركنى ادعى ربى أن يحيي ضمائرنا بداخلنا ويوفقنا دائما الى الصواب ..ولكن هل يسير الأمر فقط بالدعاء؟